# بخلاء الجاحظ والصورة الشعبية

حسن عبد النبي

اتسعت دائرة الادب العربي حتى شملت المزحة والدعابة، والترويح عن النفس لابعاد الملل والضجر عنها، ومثلت هذه الحالة الادبية في العصر العباسي اكثر من أي عصر اخر، بسبب اتساع الترف واللهو والغناء والفنون الاخرى، والجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر الذي ولد في البصرة، (١٦٣هـ-٢٥٥م) كان واحداً من اولئك الادباء الذين عالجوا النكتة والمزاح بأسلوب ساخر تارة، وجاد تارة اخرى في كتابه الموسوم بـ (البخلاء) فاتسعت شهرته، وذاع صيته لانه خلاصة نفسية الجاحظ المرحة/ وصفوة تجاربه، ومرآة حقيقية لثقافته الاعتزالية المنطقية، اضافة الى كونه دائرة معارف، ففي كتابه هذا نجد طرائف البخلاء والاشحاء ونقرأ فلسفة اولئك المقترين، وموقف ذوي الجود والمروءة منهم، كذلك نطلع على اخبار الادباء والشعراء من عرب وعجم ممن عرفوا بشح الطبع وانقباض اليد عن كل مكرمة.

فالرجل درس نفسية البخلاء، وراقب تصرفاتهم، ولم يكتف بذلك بل جمع كل ما تعللوا به من اعذار في التمسك بنقيصة البخل، وراح يطلع على ما كتبه غيره عن هذه الشريحة، ثم مازج بين هذا او ذاك باسلوب مؤثر مبيناً من خلاله معايب الاشحاء، فيحمل القارئ والسامع على تفادي هذه المعايب موضحاً لنا ان الاقتصاد مزية محمودة ولكن البخل نقيصة مذمومة.

فأنت تقرأ (البخلاء) فلا تتمالك نفسك من الاغراق في الضحك امام كثير من المبكيات والمضحكات، فهو يسرد لك الروايات عن بخلائه او على ألسنتهم فتدرك ان وراء كل ضحكة اشفاقة لا تقوى على كتمها وانت ترى تساقط النبل في نفوس طائفة من افراد المجتمع، لا هم لها الا جمع المال حتى ولو كان على حساب الكرامة التي يتسامى بها الانسان عن الحيوان.

فلنستمع الى بعض من رسالة (سهل بن هارون) الى (محمد بن زياد) والى بني عمه، حين ذموا مذهبه في البخل:

(... وعبتموني حين قلت للغلام: اذا زدت في المرق فزد في الانضاج، لنجمع بين التأدم باللحم والمرق، ولنجمع مع الارتفاق بالمرق الطيب وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : اذا طبختم لحماً فزيدوا في الماء، فان لم يصب احدكم لحماً، اصاب مرقاً...).

و نلاحظ من النص ان الجاحظ يدير على فم بخلائه علم المنطق، والمتكلمين فيجعلهم من المتفقهين الذين يتقنون تأويل الاحاديث لحسابهم فلا يزيدهم الا تهاوياً فكأني به يدفعك الى احتقارهم.

وشخصيات الجاحظ التي تحدث عنها نوعان: شخصيات معروفة، واخرى وهمية افترضها الكاتب افتراضاً فهي لم يكن لها وجود واقعي، ورغم ذلك فان الجاحظ قد احاط بها بقدرته العجيبة في التغلغل في اعماقها والكشف عن خلجات النفس، وله القدرة على تفحص شخصياتها والنطق باسمها وبهذا تتضح جوانبه السيكولوجية، كما في رسالة التربيع والتدوير، ورسالة القيان، وفي كتاب اللصوص...

اسلوب الجاحظ يجنح نحو السخرية والتهكم، ويتصف بالمرح وروح الدعابة وبالقدرة على الاحتجاج للشيء ونقيضه، فسعة خياله مكنته من ابتداع كثير من الشخصيات والاحداث وتزويقها والمبالغة في ابرازها وله قوة ملاحظة دقيقة في تصوير الامور المادية المحسوسة وبواطن النفس البشرية ولهذا فهو متمكن من خلط الجد بالهزل بحيث يصعب على المرء ان يميز بينهما، فهو من المتكلمين الذي دافع عن الاعتزال طوال فترة حكم المأمون والمعتصم والواثق، ولهذا امتاز بالنظرة الديالكتيكية، أي النظر الى الشيء او الشخص او الظاهرة من زاويتين متنافرتين، ثم محاولة التوفيق بينهما، باعتبارهما اجزاء مترابطة، وقد ورد مثل ذلك حتى في عناوين مؤلفاته مثل (الجد والهزل) ، (العداوة والحسد)، (التربيع والتدوير)، (البيضان والسودان) وفي عبارات له ايضاً مثل: (الا ترى ان فيه طبائع الغضب والرضا، دالة اليقين والشك) وبين الصمت والكلام قال في البيان والتبيين ح ١/ ٢٧٢ قيل (لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب). ويعلق قائلاً: (وانما كذلك لان العامة الى معرفة خطأ القول اسرع منهم الى معرفة خطأ الصمت، ومعنى الصامت في صمته اخفى من معنى العاقل في قوله....) وليس الصمت كله كلمة افضل من الكلام كله، ولا الكلام كله افضل من السكوت كله.....).

واما بالنسبة للمزاح فيقول:

(... ذهب الناس الى معان متضادة، فزعم بعضهم الى ان جميع المزاح خير من جميع الجد، وزعم اخرون ان الخير والشر عليهما يستويان ونحن نعوذ بالله ان نجعل المزح في الجملة كالجد في الجملة، بل نزعم ان بعض المزح خير من بعض الجد، وعامة الجد خير من عامة المزح...). ويظل الجانب الديالكتيكي متنامياً في البخلاء، وهو ذكر الشيء وضده فيقول:

(ذكرت- حفظك الله انك قرأت كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار وفي تفصيل حيل سراق الليل...) ثم يستطرد (... ولم سموا البخل اصلاحاً، والشح اقتصاداً، ولم جعلوا الجود شرفاً والاثرة جهلاً، ولم اختاروا ما يوجب ذلك الاسم مع أنفتهم من ذلك الاسم، ولم رغبوا في الكسب مع زهدهم في الانفاق، ولم عملوا في الغنى عمل الخائف من زوال الغنى....؟).

ثم يروح الى المحاججة بالتساؤل حين التحدث عن (عبد الله بن كاسب) فيقول في البخلاء/ ص: ٥٢ (.. قلت له مرة قد رضيت ان يقال عبد الله بخيل؟ قال: لا يقال فلان بخيل الا وهو ذو مال. قلت: ولا يقال ايضاً، فلان شحي الا وهو ذو مال، فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال، واسم البخيل يجمع المال والذم، فقد اخترت اخسها واوضعها، قال: وبينهما فرق، قلت: فهاته، قال: في قولهم بخيل تثبيت لاقامة المال في ملكه، وفي قولهم، شحي اخبار خروج المال من ملكه، واسم البخيل اسم فيه حفظ وذم، واسم الشحى اسم فيه تضييع ومدح...).

ثم يصف العرب بالجود، واكرام الضيف ، فهو ان ذم البخل في قول عاد ثانية ليمدح الكرم والاكرام فيقول:

(.... ولان العرب تحيل الحديث والبسط والتأنيس والتلقي بالبشر من حقوق القرى ومن تمام الاكرام، وقالوا: تمام الضيافة الطلاقة عند اول وهلة، واطالة الحديث عند المواكلة، وقال الشاعر: اضاحك ضيفي قبل انزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب وما الخصب للاضياف ان تكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب.

ثم يسترسل مادحاً صفة الكريم، فيستشهد بابيات شعرية خلدت كرماء العرب مثل (معن بن زائدة) حين رثاه (الحسين بن مطير) في قصيدة منها:

ما على معن وقولا لقبره سقتك الغوادي مربعاً ثم مربعاً

فيا قبر معن كنت اول حفرة من الارض خطت للسماح وموضعا

ثم يمضي الى وصف ظاهرة (الاستنباح) عند العرب، وهي ان المدلجين يضطرون احياناً ان يستنبحوا كلاب الحي عن طريق تقليدهم نباحها، ليلفتوا نظر اهل الحي نحوهم لغرض الايواء.

وبعكس ذلك يصف في البخلاء ص: ١٠٤ مناجاة احد بخلاء خراسان للدرهم فيقول: (... زعموا ان رجلاً قد بلغ في البخل غايته، وصار اماماً، وانه كان اذا صار في يده الدرهم خاطبه وناجاه: كم من ارض قطعت؟ ومن كيس فارقت؟ وكم من خامل رفعت؟ ومن رفيع قد اخملت؟!(!).

وما زلنا بصدد الدرهم ورحلته، نقرأ تفسيراً رائعاً لهذا الدرهم عند الجاحظ حين يقول بانه: (دار الهم) ثم يفسر الدينار قائلاً: (بانه يدني الى النار). وهكذا مما يضحكك ويبكيك معاً.

وقد استطاع الجاحظ ان ينهض بكتابه هذا، ويسمو سمواً رائعاً لانه مثل الفترة الزمنية التي عاشها من حيث الخصائص التاريخية، والتناقضات الاجتماعية وعالجها بنزعته الادبية والسايكولوجية وارائه السياسية وسعة الاحكام التي يطلقها على الاشخاص والاحداث المحيطة، ثم قابليته على عمق الاستنباط مستخدماً فناً لغوياً رائعاً وبراعة سليمة في التعبيروالاسلوب الامثل الذي شاع في مجتمعه.



## ذاكرة المدن والارياف

من المحرر

تؤرخ المدن والارياف الاحداث عندها في (قوالب) شعبية تختلف عن (التواريخ) الرسمية، وقد تتشابه معها احيانا او تكون مستجيبة لها فمنطقة (اسمحلي) في الطريق بين كميت والعمارة سميت كذلك لفترة لوصول معلم بغدادي في الخمسينيات الى المنطقة كان لايحدث العاملين في مدرسته الريفية الا ويسبق حديثه بكلمة (اسمحلي) ولهذا الحديث رواية اخرى، كما ان بعض نساء الاربعينيات في (ابي صخير) كن لايتحدثن عن حدث الا ويؤرخنه بـ(دقة اخو المضمد) واخ المضمد هذا هو شقيق المضمد الوحيد في القضاء انذاك وقد زار اخاه اثناء العطلة الصيفية وخرج مع صديق له في رحلة صيد على مشارف المدينة لكنه قتل صديقه سهواً ببندقية الصيد فكانت فاجعة كبيرة في المدينة الامنة، وقل ذلك عن ايام فيضان هور الشامية الذي كان يقطع الطريق على المسافرين وهم يعودون من الديوانية الى الشامية ونواحيها ويسبب كوارث واحداثا غريبة لهم. هكذا كان الناس يرسمون التواريخ المحلية في ذاكرتهم التي تعج بالتفاصيل المثيرة، وفي تاريخ كل مدينة وحي وعشيرة وقائع واحداث وتفاصيل لابد من ان يحويها التاريخ الشعبي ويسجلها المدونون الشعبيون، وعن طريق جمع هذه التواريخ والاحداث تتشكل ذاكرة المنطقة وتحلل وتستخرج منها الدلائل والعلامات وترسم العلاقات الاجتماعية وتكون مادة اولية خصبة لرجال الثقافة الشعبية.

باسم عبد الحميد حمودي
Basimh37@yahoo.com

# نافذة على الفولكلور الكربلائي

كاظم ناصر السعدي

هناك طرازان من مظاهر التراث الشعبي في الأقل يميزان محافظة كربلاء ويجمعهما الطابع الديني في أغلب الأحيان.. فالطراز الأول يستمد معناه التراثي من القيم الفنية التي ينطوي عليها ويجد له بعداً واضحاً في الفن التشكيلي، وهو فن النقش على الكاشي الأزرق بأساليب الزخرفة العربية الأسلامية والخط العربي وفن الطرق على المعادن لخلق أشكال مجسمة على صفائحها، ويجمع هذين الفنين المعنى الحرفي وارتباطهما بالقائمين عليها، ففي الوقت الذي يعتبر سر صناعة الكاشي الأزرق الخاص بالنقش حكراً على أشخاص معدودين توارثوا هذا الفن وصناعته، كذلك يمكن إعتبار فن الطرق على المعادن صناعة قاصرة على اشخاص أخذ عددهم يتضاءل امام متغيرات العصر برغم انه ليس سراً يحتكره او يتوارثه البعض..

لكن أهم مظهر غير صناعي من هذا الطراز هو فن (البقال بازي) وهو الأكثر إرتباطاً بخصوصيات كربلاء والذي يفصح عن الأبعاد الدرامية في علاقات الشعب الفولكلورية كضرب من الممارسة المسرحية التي تعتمد الحكايات المتوارثة غالباً والتي يطغى عليها طابع الوعظ والحكمة ولكن باسلوب فكاهي ساخر يتناسب وضروراته المكانية والزمانية، إذ ان هذا الضرب من الفن الشعبي الذي كان يمارس حتى فترة الستينيات والذي لم يعد له وجود اليوم كان أهم برامج الأعراس والمواليد، أما الطراز الثاني فيستمد المعنى التراثي من اشتماله على القيم الدينية وغير الدينية المرتبطة بخصوصيات مدينة كربلاء المتصلة تأريخياً ودينياً بقضية استشهاد الأمام الحسين (ع) وهذا الطراز يندرج تحت مظاهره ماهو صناعي وماهو تقليد او عرف او عادة متوارثة بالمعنى المقدس في الغالب الاعم كصناعة (الترب والسبح الحسينية) التي تصنع من الطين الكربلائي وصناعة الأكفان التي توشى بالآيات القرآنية وصناعات معدنية لها صلة بمعتقدات دينية شعبية مثل (كف العباس)، (طاسة الخلاص) وصناعة الأسفاط كحقائب كروية تصنع من الخوص الملون لحفظ تلك الاشكال المصنعة، هذا الى جانب صناعة صنوف من الحلوى المرتبطة بطقوس دينية خاصة، ويرصد المتابع مظاهر اخرى من التراث الشعبي الكربلائي تتسم بالطابع الديني الخاص كـ(نذور الغائب) (حمل القرائين) في مرقد الأمام الحسين ومرقد أخيه العباس (عليهما السلام) في ليالي القدر من شهر رمضان، و(السلسبيل ياعطشان) او مايسمى قديماً بـ (السقاخانات) وهي محال تجهيز الماء البارد لسقاية زوارالعتبات المقدسة شيدها المحسنون طلباً لثواب الله وتعبيراً عن حبهم لأهل بيت محمد رسول الله وبقصد إحياء المعاني والدلالات الروحية لقصة استشهاد الأمام الحسين وأصحابه، و(السقاخانات) مصممة وفق عمارة وريازة إسلامية كتبت على واجهاتها الأمامية آيات قرآنية وعبارات تستذكر عطش الحسين وعياله في ظهيرة الصحراء المهلكة وحصار الأعداء المميت. ومن مظاهر التراث الشعبي التي تتميز بها كربلاء وتصطبغ بألوانها الحزينة في شهر محرم من كل عام إقامة (مجالس العزاء الحسينية) (مواكب التطبير) ونصب (التكيات) وعمل (التشابيه) وهي مشاهد تمثيلة حربية تعرض أمام الناس في الشوارع والساحات تؤديها مجاميع متطوعة من أهالي المدينة تصور وقائع معركة الطف التي دارت بين عسكر الأمام الحسين (ع) وعسكر عمر بن سعد عام ٦١هـ والتي إنتهت بأستشهاد الامام الحسين واصحابه دفاعاً عن الحق والفضيلة.. وتستخدم في العرض المسرحي الشعبي لمأساة كربلاء كل تجهيزات ومتطلبات الحرب كالخيول والأسلحة والرايات والملابس وغيرها بهدف إثارة المشاعر ولفت الأنتباه الى مظلومية أهل البيت (ع).

ستديو ثقافة شعبية

انزال البضائع من المحيلة في بغداد.

طاق كسرى كما يبدو من الجو.

## وقفات على الغصن:

# لغويو التراث الشعبي

طلال سالم الحديثي

هي جمهرة كريمة من اللغويين العراقيين الذين تفانوا في الكتابة في حقل اللغة العربية الفصيح منها والعامي تأصيلاً وتعريباً، إبانة وإيضاحاً ومقارنة.

تلك الجمهرة التي يأتي في طليعتها، رزوق عيسى، الأب أنستاس ماري الكرملي، محمد رضا الشبيبي، مصطفى جواد، ابراهيم السامرائي، حسين علي محفوظ، جلال الحنفي، لم تأل جهداً في التفاني في خدمة اللغة العربية، ومن يطلع على مجهوداتهم اللغوية يكبر فيهم جلدهم وصبرهم في تتبع كل شاردة وواردة كما يقال في شؤون اللغة ومباحثها، فالمرحوم الكرملي تناولت مباحثه اللغوية موضوعات مختلفة تتصل بالعربية وعلاقتها باللغات السامية التي عرفها فصارت من مواد مباحثه كالسريانية والحبشية والمندائية، كما كتب في موضوع الدخيل في العربية ورده الى أصوله الفارسية والتركية ولاسيما ماكان منه في لغة عامة العراقيين.

والمرحوم رزوق عيسى نشر كثيراً من مقالاته في مجلة لغة العرب عن (لغة بغداد العامية) وعن جواز الكتابة بالعامية، وعن المنحوت واللفظ الدخيل في لغة بغداد، وعن المعاجم العامية في اللغة العربية، وعن الامثال العامية في ديار العراق.

واهتمامات المرحوم محمد رضا الشبيبي تتجلى في كتابيه، أصول ألفاظ اللهجة العراقية عام ١٩٦٥ ولهجات الجنوب (١٩٦١).

أما الدكتور مصطفى جواد فهو من أعلام الكتاب في اللغة ومباحثه فيها لاتعد ومنها: رسائل في النحو واللغة (١٩٦٩) دراسات في فلسفة النحو والصرف واللغة (١٩٦٨) والمباحث اللغوية في العراق (١٩٥٥) وقل ولاتقل، (١٩٦٩).

أما الدكتور ابراهيم السامرائي فهو من أكبر علماء اللغة العربية المعاصرين وكتبه وبحوثه اللغوية ومقالاته لايحصيها عد ومنها: أصول العامية البغدادية (١٩٦٥) (وهو بحث تأريخي في اللغة واللهجات)، الاعلام العراقية لغير المسلمين، الاعلام العربية، دراسة لغوية اجتماعية (١٩٦٤)، الجديد في اللغة ١٩٦٥، دراسات في اللغة (١٩٦١)، فوائد لغوية ١٩٦٨، وللدكتور حسين علي محفوظ، الالفاظ التركية في اللهجة العراقية (١٩٦٤) وأثر اللغة العربية في اللغة التاجيكية (١٩٦٤) وللشيخ جلال الحنفي معجم اللغة العامية البغدادية جزءان ١٩٦٣-١٩٦٦.

والاطلاع على الآثار اللغوية لهذه الجمهرة الكريمة من العلماء يقود الى معرفة ضخامة الجهد الفردي ورصانته وتشعب الابداع فيه بما يستأهل ان يكون حجر الزاوية في أي بناء علمي في مجال اللغة مثلما يجب ان يكون بمثابة الطريق الذي يسلكه الباحثون الشباب في مضامير البحث والدراسة والاجتهاد.